سلك شايك

مراد ماهر

سلك شايك / قصص
مراد ماهر
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٦٥١٨

ســــلك شـــايك

قصص

مــراد مــاهر

الطبعة الأولى

٢٠٠٨



دار اكتب للنشر والتوزيع



مذكّرات ما بعد الموت

ضحكة صاخبة حلّقت فى سماء غرفة نوم أمى فاصطدمت بصراخ عنيف ينبعث من جهاز صغير عالق فى حلقى يدخل الخدمة لتوّه.

فتفتتت إلى ابتسامات تلوّنت بخطوط تباينت على شفاه كل من اصطفّ تأهبًا لاستقبالى.

هكذا بدأت حكايتى معهم.

حكايتى معهم هى حياتى بينما حكايتهم معى جزء من حياتهم، قد نتبادل المساحات فى بعض الأحداث، لكن بمجرّد اختفاء أثرها تعود الحروف إلى استقامة السطور.

حتى الآن لم أعثر على سبب يقنعنى بابتساماتهم.

أمى أخبرتنى أن أبى لم يكُن فى استقبالى، كان مغتربًا يتفرغ فى وضع أساسات لمستقبلى.

تساءلت بشغف كيف كان ليستقبلنى حال وجوده!

فى صبيحة وصولى تجمّع غيرُ قليلٍ من العمالقة. يقتحمون على محطة وصولى، ارتسمت على وجوههم ابتسامات تشبه سابقاتها لكنها كانت أكثر شرًا.

وجدتهم يدسّون لفافات من ورق ملون ونطفًا من معدن أصفر بين ثنايا ملابسى.

لم أكُن فرِحًا، كما لم أشعر بحاجة إلى الصراخ؛ فكل ما حولى لا يعنينى كثيرًا، فقط يكفينى أن أمى لا تفارقنى.

أعرف أنها تحتضن كل ذكريات حياتى فى أعماقها. لم أكُن سعيدًا بحاضرى، ولم أحاول أن أحب الغرباء.

لجأت فى الأيام التالية إلى الهروب من نور يُولَد فيأتى معه الغرباء، فكنت أعمد إلى إغلاق مصراعَى عيونى حتى أتلصّص ذكريات العالَم الآخر.

توهَّموا أنى أنام بالنهار.

ما زلت أذكر النشأة، شبابى، اتّضاح معالمى ونوعى وظهور

الأعواد الصلبة تحت اللحم الأحمر.

أذكر شيخوختى وتبدُّل حالى رأسًا على عقب، أتحسّر على حرّيتى التى صاغتها وحدتى، ما زلت أذكر جنازتى التى لم يشيّعها سواى ولم يشاركنى فيها إلاّ آلام أمى وصرخاتها، فبرحتُ دنياى باكيًا على موتى أو حزينًا لانقضاء حياتى.

كيف لهم أن يبتسموا فى مشهد كهذا؟!

وعلى الرغم من أنى عُمّرت فى حياتى الفانية ما يدنو من نصف مليون دقيقة فإنى شعرت فى اليوم الرابع لوَفَاتى أنى ما عدت أذكر الكثير عن حياة ما قبل الموت، فبدأت أُقلّ من إغماض عينَى، ووجدتنى لا أطيق الابتعاد عن جدارٍ فصلنى عن العالَم الذى احتوانى، فكنت أفتعل الصراخ حين تبعدنى أمى عن صدرها.

كانت الفجوة بينى وبين سكان القبر واسعة وتتسع، لكننى اقتنعت بواجبيّة حدّ الاتّساع، حتى إنّنى عندما لمحت أصابع أمى الكبيرة تقبض على قلم وورقة وجدتنى أبتسم؛ فصاحت تخبر كل الغرباء أنى أعرفها وأضحك لوجهها، فلم أشأ أن أُحبِط نشوتها؛ فاكتفيت بالاقتضاب.

فى اليوم الخامس فوجئت بأمى تقلّل التصاقى بها وتزيد من

لحظات الفراق، فازدادت فترات صراخى، خُيّل إلى الغرباء أنى بهجرها أجوع.

اكتشفت أنى لم أعُد أتذكر الكثير؛ فشعرت بإحساس آخر للوحدة لم أعهده قبل الموت، يومها قرّرت أن أتعامل مع واقعى كحقيقة قد تستمرّ لملايينَ من دقائقَ قادمة.

استرحتُ دماغيًّا بعض الشيء؛ فالغرباء قد تقلّصوا، و لم يعُد هناك المزيد من الأوراق والمعادن توضع بين ثنايا الكفن، ليلتها نمْتُ كما لم أنم منذ فارقت الحياة.

في اليوم التالى زارنا غريبٌ أراد أن يطمئنّ على حالي، كنت أشعر أنى قابلته من قبل.

دقائق وتنبّهت أنه الحانوتى الذى امتدّت أصابعه لتقطع صلتى بحياتى وتُدخِلنى أجواء القبور.

كان يتحدث إلى بلغة لا أفهمها، لكنى كنت أفهم أمى، لا أعرف كيف، لكنى أعرف أنه ليس بالضرورة أن تتحدث لغة من يخاطبك حتى تفهمه.

أحيانًا تلعب العيون دور المترجم الصامت فقط حينما تتقارب الأرواح.

أخبرتنى عيون أمّى أن أبى سيحلّ غدًا لرؤيتى،فعدت أتساءل:

"كيف حاله حين استقبالي؟"

نمت ليلتها دون تفكير أو حتى محاولة تذكُّر أى شيء عن حياتى الفانية.

فقط أترقّب لقاء الغد، نمت دون التمهيد اليومى الصارخ.

اليوم السابع.....

استيقظت على حركات غير عاديّة، ساعاتٍ وَصِرْتُ محاطًا بعشرات من عمالقة الغرباء وأضعاف من صغارهم. ضجيج وغناء،ملْح،دَقّ،أكل...وتعملقت الابتسامات مبتكِرةً ضحكات تزيّف ما تخفيه.

ضحكاتهم اصطدمت بوقع أقدام الرجل الوافد، فساد الصمت...

لمحت ماهيته من فرحة أمى ولهفتها، صرخت تمامًا كلحظة وفاتى حتى أَهَبَهُ حقّه فى أن يستقبلنى.

فلمحت بريقًا فى عينيه ودمعة تقترب من شفتيه.

وفاجأنى...

ابتسم إلى فى وجه أمى، وقبّلنى على خدّها، فححبت صراخى.

هم كل حياتى وأنا جزء من حياتهم...

* * *

كلنا عيال

صراخها يهدِّد كل كيان الصمت فى العتمة، يجبر نقيق ضفادع الخفاء على التنازل عن عرش الصخب. فبات صراخها حياة، ونقيق غيرها لرتابته سكونًا، وتَقَهْقَرَ الضوء المستدير أمام التحام أثواب السماء، فتساقطت حبّات من ثلج آلت مياهًا؛ رأفةً بقطعة من لحم أحمر تشكّلت بين ذراعيها مسخًا من بشر.

فكانت ليلة صاخبةً ساكنة تسيل من سقفها الدموع.

ما زالت تصرخ وتحت قدميها قطعة لحم أكبر حجمًا تتحرك على أربع حتى حين...

سجنت عيونى وراء قضبان نافذة صغيرة مُحكَمة الغلق فى غرفتى، أختطف النظرات، وأخشى أن تدركها عيون أخرى.

أُنهى ليلتى باتخاذى قرارًا بالنوم مستضيفًا ثلاثتهم فى سباتى، فاجأتنى بازدياد صراخها صخبًا فأعاقت مسار هروبى، أدركت أنها رفضت الاستضافة.

أمي تمنعني أن أتوقف عندها، أو حتى أن أنظر إليها، تتّهمها بأنها تخلّت عن عفّتها حتى تَخَلّى عنها عقلها، دائمًا تردد:

"حرام اللحم اللي رامياه في الطل ده، ذنبهم إيه؟!".

لم أفهم كثيرًا من أقوال أمي، لكنني أستوعب أنها تكره تلك التي بلا بيت أسفل بيتنا.

عدت أتلصّص بالنظرات على الصغيرين، كانا عَارِيَيْنِ في برد ليل الشتاء. ارتعشت أطرافي حين أبصرتهم يستترون وراء جدران الهواء.

أردت أن أقذف إليهم من نافذتي بكل أغطيتي، بكل سريري، بكل حجرتي...

خشيت عقاب أمي التي تنبهتُ لصراخها حاجبًا عن أذني صراخ الصخب، يأمرني أن أبتعد عن النافذة وأحتضن فراشي.

ثانيةً لا أقوى على استضافة أي من ثلاثتهم في منامي، حاربتُ فراشي، ولجأت إلى مخبئي حين تشتدّ بي غارات الخوف.

أسرعت لأرتمي بين ذراعي جَدّتي، أحضانها كانت ترجمتي الشخصية لكلمة جنّة، كان انغماسي في مملكتها باعتيادية تكفي لدفعها ألا تنتبه لمقدمي، أرغب في أن أقصّ عليها قصّة خوفي

وأغطيتى والعُراة، لكنى آثرت أن أسألها سؤالاً حاصرنى لحظتها وإن كان معناه يسكن داخلى منذ كثير:

"تيته، هوّه إحنا ليه اتولدنا؟".

انتبهت جَدّتى لتوّها أنى أحتلّ حجْرها، بدأت إجابتها بضحكة أحبُّها، فأردت أن أقبّلها، لكنى فضّلت الحصول على الردّ أولاً، أجابتنى هامسةً بطريقة لا تستخدمها مع الكبار:

"يا حبيب تيته، إحنا كنا كلنا ملائكة عند ربنا، وقبل ما نتولد ربنا خيّرنا نبقى ملائكة فى السما ولاّ بنى آدمين على الأرض، فاخترنا نبقى بنى آدمين، فاتولدنا".

واختتمت حديثها بضحكتها الملائكية النقيّة.

وجدتنى لا أشعر برغبة فى تقبيلها، اصطنعت من عناق ساقَيها سريرًا، وأعدت صياغة قرار النوم متضمنًا استضافة شخص جديد بديل عن ثلاثتهم، أستضيف تخيُّلى لنفسى على هيئتى الملائكية.

رأيتنى جميلاً فأيقنت خطأ اختيارى بأن أُولَد.

لحظات وانهار سريرى بانتفاض جَدّتى ناحية الشرفة فتبعتها. أمى كانت هناك ترقب صراخ المرأة بالخارج، صراخها تحوَّل إلى ضحكات أكثر صخبًا من الصراخ.

جَمْع من الناس يلتفّون حولها يحاولون إفلات الرضيع من بين يديها، بينما آخرون يحملون الآخر وقد استسلم لحصار الفناء.

أخفيت عيونى داخل حجرتى، فبكيت حين أبصرت أغطيتى، تنبهت أنى لم أبكِ قبل الآن لأجل غيرى.

نظرت فى عين أمى، لم تبكِ؛ فكرهت عينيها، وتوجهت ناحية جَدّتى صارخًا فيها:

"يا تيته، أنا عيل، وعايز أرجع فى كلامى".

* * *

أصابع بزيٍّ مختلف



كنت أجلس بجوار نافذة تهرب من خلفها الدنيا، تصنع من زجاجات عيني مرايا، يرى الناظر فيها تفاصيل شريط من تناقضات الحياة.

في البدء كنت أحاول التدقيق في تفاصيل ما أرى، كنت صغيرًا، أجدني عاجزًا عن إيجاد تفسير لهروب كل شيء في عكس اتجاهي.

لكني أحببت القطار.

ربما منذ ذلك اليوم الذي امتلكت فيه لعبة على شكل قطار يتحرك على قضبان دائرية، لم أستطع يومها أن أندسّ بداخله

كى أتجوّل فى بؤرة محيط حجرتى، لكنى ندبت إصبعى الأصغر كى يتدلى إلى داخل النافذة.

كان يكفينى أن يكون جزءٌ منى بداخل القطار، الآن يستطيع كلّى أن يتحول إصبعًا يجلس بجوار نافذة قطار كبير قضبانه ليست دائرية.

كنت أشعر أن كل قطار هو فلاّح بحكم اتجاهات تتحكم فى طبيعة عمله، وربما لكثرة الأصابع التى لا ترتدى زِى مدينتنا.

لكنى أحببت القطار.

* * *

كنت أجلس بجوار نافذة تتعملق من خلفها شجرة بطول بعد السماء عن عينى.

أبى يقول إنه عرف الدنيا من وراء فروعها، جَدّى يخبرنى أنه عرف التسبيح من عصافير حطّت على أغصانها منذ زمن لا يَعِيه.

عندما سُئلت فى المدرسة عن معنى السكون أجبت أنه "عندما لا تداعب أذنى إلاّ زقزقة عصافير شجرتنا".

تمثل كل أعداء حياتى فى هؤلاء الصغار الأطول منى قامة الذين يستخدمون نبالهم - طفولية الصنع- ليصطادوا بها عصافيرنا.

فى كل الأحيان كان هروب العصافير أسرع من مدافعهم، لكن الشجرة تبقى دون سُكّانها إلى أن يتوقف إطلاق النار، وينسحب المعتدون. كنت أعتقد العصافير رُسُلاً لملائكة لا أراهم فى اليقظة، جاؤوا من أجلنا، فكنت أتشاجر مع الغزاة من أجل مملكتنا.

تبقّى لى عدوٌّ آخر أسمعه ولا أراه، لكن الشجرة تُخْلِى سُكّانَهَا مع بدء العدوّ فى إرسال موجاته.

عرفت فيما بعد أنه نفير القطار الذى كنت أحسبه ثعبانًا يتلوّى مخترقًا خَضار بلدتنا.

كرهت القطار قدر حبى للعصافير.

* * *

اليوم أول أيام شهر الصيام، أخبرت أمى أنى سأصوم الشهر كله هذا العام.

صوت هروب القطار من مشاهد النافذة بات سكونًا لرتابته فكدت أخلد للنوم.

أمى تحاول إقناعى غير مرة بتناول أى طعام أو شراب، أرفض معلّلاً بأنى سأفطر مع جَدّتى بعد الوصول.

يضحك أبى وينعتنى بالرجولة.

فجأة، تتجسد كل المشاهد المتعاقبة خلف النافذة فى مشهد واحد...

يتوقف القطار فى غير محطة وصول!

* * *

اليوم أول أيام الصيام، أذهب كما اعتدت إلى نقطة تتوسط ما بين بيتنا وخطوط القطار المستقيمة، أضع نهايات جلبابى لأصنع من بين أطرافه جعبة تؤوى سهامًا أستخدمها فى المعركة،

ما إن تبدأ أبواق أى قطار فى الإعلان عن مَقْدمه حتى أشرع فى قذفه بحجارة تقطن جعبتى، لا أتذكر أن أيًا منها أصابت هدفها يومًا، لكنى كنت موقنًا أنى بهذا أتودّد إلى رسل الملائكة...

هذه المرة بدأت فى رشق الهواء بسهامى فتوقّف القطار، لم أرَه صامتًا من قبل، ربما أصبته فى عينيه.

علمت أن الحرب قد بدأت، عدوّى قرّر مواجهتى هذه المَرَّةَ.

لمحت العصافير تهجر شجرتنا فى سياق انسحاب؛ فأبيت أن أخوض الحرب وحدى، هُرعت فى اتجاه بيتنا المختبئ وراء الشجرة العتيقة أملاً فى صنع حلف سريع مع أبى ضدَّ عدوٍّ يفوق فى قوّته كل بلدتنا.

لم أعرف معنى الرعب إلاّ يومها.

* * *

جاء أبى من مقدّمة القطار يخبرنا أن محرّكاته قد تعطلت، علينا أن ننتظر.

أمى يشغلها موعد الإفطار الذى يداهمنا. وأنصرف أنا إلى المشهد الذى توقفت عنده شاشة القطار المتحركة.

* * *

أخبرهم بكل ما رأيت، نظر أبى إلى النافذة كنوع من الاستطلاع والوقوف على قوّة العدوّ، لمحته يبعث برسالة من عينيه إلى عينَى أمى فأومأتْ برأسها علامة على تفهُّم المهمَّة، فطنتُ إلى أنهم ربما خاضوا حروبًا مشابهة من قبل.

سألت أبى أن أُخبِرَ أهل بلدتنا ليستعدُّوا، فأهدانى ابتسامة قائد يثق فى النصر قائلا:

"كلٌّ يعرف دوره".

أدركت أن الخطّة مُحكَمة وأن النصر آتٍ.

هنيئًا يا رسل الملائكة.

أقسمت لهم أنه كان يقذفنى بالحجارة من بعيد فتبسمت أمى قائلة أن لا أحد يعرفنا ها هنا.

ألصقت عينَى بالنافذة حتى مللت المشهد الواحد، صوت الأذان يمنحنا رخصة فض الصيام.

المشهد تطرأ عليه اختلافات بملء الشاشة الثابتة.

رجال بزِى القطعة الواحدة المختلف عن زِى سكان مدينتنا يتقدمون مسيرةً من أنساق ثلاثة، النسق الثانى من نساء يحجبن كل الجسد إلاّ من اليد والعينين، تتشبّث أياديهن بما فوق رؤسهن، وأطفال تباينت أعمارهم وأزياؤهم يشكّلون النسق الثالث الزاحف وراء صفّ الأمهات.

* * *

زحفت وسط مشهد منتظم تجاه العدوّ الوافد، صوت الأذان يزحف هو الآخر فوق رؤوسنا، وأبصرت العصافير

تحطّ على سطح العدوّ الصامت فأيقنت أن الله يبارك زحفنا، وتحولت المعركة التى اشتدّت فى خيالاتى إلى شىء آخر...

* * *

أفطرت وأبى وأمى مع عائلة الصبى الذى رأيته يقذفنى بالحجارة، ملت على أذنه متسائلاً:

"إنت كنت بترميني بالطوب ليه؟".

أجابني بنبرة حادّة الملامح:

"أنا مكنتش أقصدك، أنا كنت عاوز أعوّر القطر ومكنتش عارف إن فيه حد جوّاه".

ساد الصمت ثم الضحك، وتوجهت إلى الأب مبتسمًا:

"هوه انتو يا عمُّو متعودين تعزموا القطر؟".

نهرني أبي، وتلاقت أعين الكبار، فضحك الجميع.

* * *

مَن نزع الغطاء؟



لم تتردّد حينما طلب بعضهم منها اصطحاب صغيرها لصلاة الجمعة، ليكون مع مئات من الأطفال، يرفعون مع أصواتهم لافتات حبّ ومؤازرة لصغار لبنان الباكية.

التفّ الصغير مع عشرات من زملائه أمام المسجد، حاولوا اللحاق بالصلاة، أوقفهم ضابط يرتدى زيًّا أسود ونهرهم قائلاً:

"روح ياد انتا وهوه، هوه يعنى انتوا اللى حتحرّروها؟".

فردّ عليه الصغير:

"خلاص نزّل العساكر بتوعك من البوكس وحرّروها انتو".

صفعه الضابط بعَصًا فى يده، فذُعر كل الصغار وتفرّقوا.

عاد إلى أمه باكيًا، وآثار الضرب منحوتة فوق جسده

الضئيل، صُدمت لروايته، حَنَت على وليدها مداوية ما علق بجسده، وضعته على فراشه، وخبأته بغطائه حتى نام...

ساعات مرّت، سمعَتْ صوت صراخ قادم من حجرته، هُرِعَتْ إليه تسبقها نبضات قلبها الفَزِع، وَجَدَتْهُ كما تركَتْهُ نائمًا فى وداعة كلِّ جميل، فقط وَجَدَتْ غطاءه وقد أُزيحَ من فوقه.

أعادت الغطاء وقضت ليلتها نائمةً بجواره.

فى الصباح استيقظ طفلها، أيقظها قائلاً:

"يا ماما، أنا حلمت حلم مش حلو".

سألته مبتسمه عن تفاصيله فأجاب:

"حلمت إنى فى جنينة مش خضرا وفيها ناس كتير و...".

وصمت الصبى معللاً بأنه لا يتذكر.

مرّت ساعة، عاد إلى أمه وفى يده ورقة وقال:

"ماما، ماما، أنا رسمت الحلم".

الورقة رُسمت عليها حديقة لم تعُد بها أشجار، وفى منتصفها بيت تَهَدّم نصفه الأعلى، البيت تشكّلت له عينان، تسيل منهما دمعتان لونّهما باللون الأحمر.

ضحكت الأم و لم تكترث، داعبته قليلاً ثم تركته...

حلّ المساء، جلست أمام التلفاز تسمع خبرًا عن نازحين من الجنوب، تَجَهّم وجهها بغتة حين رأت طفلاً يشبه صغيرها إلى حدِّ التطابق يرفع أمام الكاميرا نفس اللوحة التى رسمها الصغير فى الصباح.

ذات البيت، ذات العينين الدامعتين، مكتوب على الشاشة "حديقة الصنايع".

تركت التلفاز، هُرعت حيث ينام صغيرها، وجدته غارقًا فى سباته.

لكنه أيضًا كان دون الغطاء.

الورث

استقبلني -كما عوّدني- بحفاوة يبالغ فيها، وعلى الرغم من أن زيارتي له لا تزدوج فى العام الواحد فإنه يعتقد أنى ابن من أبناء تجارته.

"طبعًا برباط يا عم إسكندر".

قلتها بصوت جذب خيوط انتباه كل مَن حولي، فطبلة أذنيه -كما كان يروى لنا- أضعفتها أصوات طبول حروب خاضها.

"لأ يا بابا، مش عايزها برباط".

قالها ونظر إلى أصابع قدميه فى توسُّل.

فى نفس المكان وبنفس النظرة المتوسّلة حدّثت أبى منذ ثلاثين عامًا بنفس الكلمات التى أطلقها صغيرى نحوى...

"الرباط هيخلّيها زى رجلك مبتنخلعش".

عندما جاءنى ردّ أبى على هذا النحو صرخت بتأدب:

"لأ يا بابا بتنخلع، وأول حاجة بتنخلع هى الرباط".

فى النهاية أرتديها بالرباط وأفرح، فقط لأنها جديدة.

حوش المدرسة كان لى عالَمًا ينفرد بتفاصيل تختلف عمّا تَبَقّى من عالَمى ،لم يكُن فى كل الأحوال مبعثًا للفرحة فى نفسى.

"تحيا جمهورية مصر العربية".

أهتف بها ثلاثًا كلّ صباح، الكلمات لم تتعدَّ يومًا كونها فصلاً جديدًا من كآبة الدراسة، فلم ألمح يومًا حروفًا أكرّرها، أجلس على مقعدى فى الصفّ الخلفى، أطرق باب كرّاستى، أشجّع قلمى أن يهرب بعقلى متسللاً راسمًا ذلك القابع فى سماء ركن من أركان الحوش.

أنقش يدًا تمسك بيد من حديد تصفع ناقوسًا تفترق من محيطه خطوط تنبعث صوب الأسماع... أتجاهل كل محيطى، وأتفرغ فى مغازلة لوحتى أملاً فى أن تتحول الخطوط إلى حقيقة تشتاق إليها أذنى.

صاحت دعاء:

"أبلة سلوى بتقول حصّة الألعاب النهارده هتكون فى الحوش ومش هنلمّ ورق".

هرولت مع نزلاء الفصل والشكوك تراودنى فى صدق ما قيل، رصّتنا الأبلة سلوى كعيدان القصب فى حزمتين إحداهما لنا والأخرى للبنات، وأمرتنا بتفاصيل اللعبة:

"اللى هيوصل الأول للجرس ويضربه هيفوز".

كنت العود الأول فى حزمتى، وكذلك كانت دعاء فى حزمتها.

طبيعى أن أنتصر، كيف للبنات أن يسبقن الأولاد؟

البنات يتكرن حالة من الهياج والمرح رأيتها ليست ضرورية، فأنا لم أفُز بعد.

وجدتنى فى المشهد التالى أتوسل إلى الأبلة سلوى مدرسة الألعاب والموسيقى والرسم والتدبير المنزلى وأى حصّة فاضية أن تعيد السباق، فحذائى خاننى متخلّيًا عن قدمى!

البنات يتراقصن ابتهاجًا بالنصر، يلعبن لعبة نطّ الحبل بلا حبال، ودعاء تجمع بين ساعدَيها فى ثبات المنتصر ناظرة إلى عينَى فى شماتة الصعاليك.

مدرِّسة كل شىء ترفض كل توسُّلاتى. ألمح فى عينيها

دائرتين تتمايلان مع احتفال البنات بالنصر، نصحتنى دون وقار أن أعتنى برباط حذائى.

نظرتُ بتوسُّل إلى أصابع قدمَى العارية، ربما طالبًا منها أن تُنبِت حذاءً من عدم.

تنبهت لحظتها إلى أن قاهرتى لا ترتدى حذاء، وعرفت أنها تخلّت عنه خوفًا من أن يتخلى عنها، كان هو الآخَر برباط.

اختفت كل الوجوه أمام عينَى وتقلّص عالَمى الفسيح مختبئًا فى قبّعة من حديد أستجديها كى تلد خطوطًا متخاصمة تعرف طريقها إلى أُذنَىَّ أملاً فى أن تُنهِى توابع خيبتى.

* * *

"يا بابا أنا بنوتة، ألبسها برباط برضه زى رامى إزاى بس؟".

تولّى لسان صغيرتى صفْع القبعة المعلقة فى السماء فانتبهت إليها ورامى والعمّ إسكندر ينتظرون قرارى:

"يا حبيبتى برباط، ولما تجرى ابقى اقلعيها".

* * *

ورد القرافة

على الرغم من طعنات الشوك فى أصابعه الصغيرة، تلك التى تصنع من راحتَى يديه جدارية تستوعب بملء مساحتها مسامير لا معدنية، زارعة بين خطوط العمر لوحات من ورود بلا رائحة، وعلى الرغم من إدراكه بأن وروده تختلف عن تلك التى يراها تزين أصابع العشاق بلا شوك، فإنه أحبّ الورود وكره مدرسته، وأحب أباه ويوم الجمعة.

عندما همست تَخْتَةٌ فى أذن بقيّة تُخَتِ الفصل:

"أبوه تُرَبِى".

سخرَت كل التخت من تختته، فانزوَت بلا لسان أو حراك تمامًا فى نفس موقع السبورة على الحائط المقابل.

من يومها كره المدرسة و لم يستطعِ أن يكره أباه، فقرّر دون أن يدرى أن يحبّه، ودون أن يدرى أن يكره جاروفًا يستقبل به أبوه كل راغب فى العيش تحتهم.

أبوه يزرع تلك الورود فى حوش تربتهم، ربما كانت بلا رائحة، لكنها تحتفظ بهيئة الورود الحقيقية.

يدرك كما أخبرته أمه أنهم يعيشون هناك وسط القبور لأنهم يشكّلون حلقة الوصل بين الأحياء والملائكة والموتى.

كانت تكرّر:

"إحنا بنحرس اللى عايشين تحتنا".

تعلّم أول ما تعلّم من قواعد حرفته أن يوم الجمعة كله برَكة، أبوه يرفض أن يجعله يعمل فى أىّ يوم من أيام الأسبوع إلاّ يوم الجمعة.

"أنا عايزك تذاكر وتنجح وتبقى دكتور كبير زى الدكتور اللى لسة ميت الجمعة اللى فاتت، شفت الناس وراه كانت قد إيه؟ أُمَم، خلّصوا كل الورد اللى كان على فرشتك".

كان يردّ على أبيه مخاطبًا وروده:

"طب لَمّا اموت مين اللى هيبيع الورد للّى جايّين ورايا؟".

ولدت فى رأسه الصغير فكرة كبيرة ظنّها فى بادئ الأمر ابتكارًا شديد العبقرية:

"لماذا لا يجمع الورود من فوق القبور بعد أن يتركها من اشتروها ويعيد بيعها مرة أخرى؟"

صفعه أبوه على وجهه محذّرًا من تنفيذ الفكرة، وبشىء من الحزم اللا قاطع قال له:

"ده حرام، وربنا كده مش حيبارك، الورد ده بقى مِلْك للملايكة والناس اللى تحت".

لم يرَ أمّه يومًا تبكى مثل النساء، ولم يرَ أباه يحزن مثل الرجال، فأحيانًا يلوم الذين يأتون وراء الأموات على بكائهم وحزنهم، وأحيانًا أخرى يلوم أمّه وأباه على أنهما ليست لهما دموع كالآخرين.

هو الآخر كان لا يبكى، لكنه لم يكره البكاء. كان يطلق سؤالاً مع كل جنازة دامعة:

"طب لَمّا هما بيحبوا الميت كده، ليه مبيجوش يعيشوا معانا؟".

ككل يوم جمعة يأتنس إلى الشوك النابت فى جوف يديه،

ينظر إلى فَرْشَتِه حينًا وحوله حينًا، دائمًا يخشى أن تلمحه تحتة من تحت الفصل.

أحدهم يقترب:

- بكام الورده يا حبيبى؟

"باللى تجود بيه يا بيه".

يردُّ ضاحكًا:

"إنت ف سنة كام يا عسل؟".

- فى تانية أول.

- مدرسة إيه بأه؟

- مش فاكر، أصل النهارده الجمعة، أجازه يعنى.

ويستطرد دون أن يعطى الرجل مساحة أكبر للسؤال:

"كام وردة يا باشا؟".

يقطع الحوار صراخ من داخل قبرهم، يعلم مدى حدّة الصوت وبصمة إيقاعه، يدرك من فوره أنها أمُّه.

يجرى فى اتجاهها، يموت قليلاً فى أحضانها ثم يُبعَث من جديد ليرى أباه ميّتًا على سريره.

الأقارب من بعيد وسُكّان القبور المجاورة توافدوا لحضور دفنه، يفرح قليلاً عندما يتذكر أن زملاء الفصل لن يهمسوا ثانية أن أباه "تُرَبِىّ"، أبوه الآن "ميت".

تَعَجَّبَ قليلاً لصراخ أمه المتواصل ودموعها التى لا تنقطع، من أين أتت بكل هذا الماء فى عينيها؟

لم يفكّر أحدهم أن يشترى وردة لأبيه.

يقرّر أن يجمع كل الورود المزروعة فى حوش قبرهم، ينشرها على قبر الأب، يجلس أمامه، يتحدث إليه:

- "إنت هتطلع تانى، صح؟".

* يرد عليه صمت يحمل صوت أبيه.

- " أمال مين اللى حيزرع الورود ويسكّن الناس؟ لو كنت حتزرع ورد تحت خدنى معاك عشان أبيعه".

* صمت....

- "أنا باحبك".

ويكمل بكاءه نومًا فيقضى ليلته فوق القبر والورود...

يستيقظ على ضوء مصباح السماء الأصفر وضجيج موكب

قادم من بعيد يحمل ساكنًا جديدًا ليعيش تحتهم، يجمع كل الورود النائمة على القبر، يصفُّها على فرشته فى غير يوم جمعة، ثم...

يبحث عن جاروف أبيه.

* * *

سلك شائك



شارعنا ككل شوارع الدنيا الصغيرة، نعيش بداخله ويحيا بداخلنا، على جانبيه بيوت تُؤْوِينَا فى أحشائها، وفى جوفه أنبوب ضيق نستمد من بدايته ونهايته نقاط الخلاص من رحم الضيق.

* * *

أبرز سكان شارعنا لم يكن من أعيانه أو وجهائه ولا حتى من مثقفيه، كان البربرى هالة من هالات الغموض فى حياة كل واحد فينا، هيئته كالدراويش وحركته كالبهلوانات وكلامه دائمًا غير مفهوم، الوحيد الذى يستطيع أن يُوْجَدَ فى شارعنا رغم حظر التجول الذى يفرضه جنود الاحتلال بعد أذان

العشاء.

نسمعه يتحدث إليهم بلغتهم وأحيانًا يصرخ فيهم، ويعلو صوته على أصواقم، قدر الكثيرون عمره فوق الستين. فسر الكبار من حكماء شارعنا غرابة أطواره أنه مسكون بجنّيٍّ من جنسية الجنود، برر ذلك أن الغرباء وكبار شارعنا يخافونه ويتجنبون إيذاءه.

أُمِرَ كل الصغار بعدم الاقتراب منه، وطُلب من الشباب تجنب الحديث إليه أو مصادقته.

***

شارعنا ككل شوارع الدنيا الفقيرة، أحيانًا نعطيه قدر ما نأخذ، لكننا فى الأعم لا نأخذ بقدر ما نعطى، ولا نعطى بقدر ما نأخذ، وجدنا أنفسنا مع وجود الغرباء قد قنعنا بألا نعطى وألا نأخذ.

فقط نعيش.

* * *

البربرى أقوى من ضابط النقطة الذى يرفع يديه فى الذهاب والإياب مُؤَدِّيًا التحية العسكرية لجنود القمع، وإيمانه أقوى من شيخ الجامع الذى يخشى أن يرفع صوته بالأذان حتى لا يؤذى أسماعهم بينما يفترش البربرى حصوات الأرض ليصلى أمام حواجزهم، كان أقوى من الصغار الذين يسمعون كلام الكبار بعدم النزول إلى الشارع أو النظر إلى الجنود من الشرفات، وأقوى من الكبار الذين لا يستطيعون حماية صغارهم.

الكبار يكرهونه والشباب يَعُدُّونَهُ بطلاً والصغار يؤمنون بأنه أسطورة من أساطير حكايات الليل الملهمة بالنوم.

ولأننا نتشبث بالخيالات فقد كنا نردد أن البربرى هو المخلص المنتظر، هو بلا سلاح ولا جيش، لكن شارعنا انتظر منه الخلاص.

* * *

شارعنا ككل شوارع الدنيا المحتلة، تُزَيِّنُ أبوابَه حواجزُ من حديد صَدِئَت بفعل عدائية نظراتنا إليها ودموع من أهينوا أمام عيونها.

تخترق صمتَهُ المكبلَ بالذل بين الحين والحين صوتُ رصاصات ترسم على جزء من أرض أو جدار لوحة غير منتظمة كل لونها أحمر، تتحول إلى الأسود مع مرور الصمت.

* * *

بدأ اختفاء جنود من بين صفوفهم فى الليالى التى يخاصمها القمر، فانتقلت حواجزهم من أنبوب الشارع لتذوب فى أبواب بيوتنا، ومع اختفاء الجنود، اختفى البربرى فتسلل اليأس إلى قلوب مريديه والرضا إلى كارهيه وروح الانتقام إلى آخرين، وتزايدت لوحات الأحمر على جدران بيوتنا حتى لم يعد فى شارعنا بيت لا يحوى جدارًا أحمرَ، ولم يعد فى شارعنا فم امرأة لا يصرخ حزنًا ولا جسدًا لا يرتدى السواد.

وازدادت الدموع فازداد معها صدأ حواجزهم؛ فَلَوَّنُوْهَا بالأحمر كلون وجوههم وزيهم وراياتهم، وقاومهم سكان شارعنا برفع الرايات السود على الأسطح والشرفات، فتوقفت مظاهر الحياة إلا من نزال لا يهدأ بين الألوان، وعلى الرغم من أن كل شوارع حَيِّنَا كانت تحت قيد الاحتلال، فإن شارعنا كان الوحيد الذى اتخذ السواد شعارًا للرفض، فأطلق عليه "الشارع الأسود".

شارعنا ككل شوارع الدنيا السوداء، دائمًا يبحث عن لون أكثر أناقة ليتناغم مع ألوان الحياة، وكلما خطا خطوة نحو اللاأسود.... ازداد السواد.

* * *

ازدادت نوبات اختطاف الجنود أكثر من ذى قبل، وتكرر استيقاظ الشارع على مشهد جندى مسلوب السلاح يغرق فى الأحمر وسط الأنبوب، يزداد الأحمر، يلمع بريق الأسود ويتناسى الناس بديهيات حياة حفرت فى تاريخ شارعنا، الأطفال يلعبون الكرة داخل سراويلهم ويخفونها تحت الأسِرَّة، النساء يفتقدن أحاديث النميمة فى المآتم وحفلات الزواج، ويتلمس الشبابُ الحُبَّ فقط من موروث الأغنيات، وباتت أمنية كل كبير فى شارعنا أن يُصَلِّيَ الفجر فى الجامع قبل أن يتحول إلى لوحة حمراء غير منتظمة.

قُتل الكثيرون من جنود الغرباء، لم يستطع أحدهم أن يعرف الفاعل، نحن أيضًا لم نكن نعرفه.

* * *

شارعنا ككل شوارع الدنيا الطيبة، يهاب الموت ويعشق الحياة، فإذا جاءه الموت استكان، وإذا لاحت له الحياة بحث عن الموت.

* * *

لم يكن فى شارعنا من يرغب فى البحث عن مبررات أو دوافعَ لقَرَارٍ اتَّخَذَهُ الْحُمْرُ.

عربات حمراء تحمل مكبرات للصوت تجوب شارعنا منذ بداية النهار، تذيع بيانًا للجميع:

"إننا نريد سلامًا دائمًا مع أهل الشارع الأسود؛ لذا فقد قررنا العودة من حيث جئنا، وعلى كل سكان الشارع الالتزام باللاحياة حتى بدء أذان الفجر".

الكل يقبع فى أحشاء الشارع يهمس بالفرحة، لم يحن وقت الإعلان عنها بعد، الكل نيام على فراشهم يختفون خلف جلودهم كعادهم كل يوم بعد أذان العشاء.

لكن الليلة تختلف، هواؤها يختلف، دقات ساعاتها تختلف،

دفء الأغطية على الأسرة مختلف.

بدأ الناس يسمعون ضجيجًا بالخارج يتحدث بلغة الرحيل، فيتهامسون مع الجدران طالبين منها أن تشف للحظات ليروا مشهدًا لم يشاهدوه من قبل، طالما حلموا بتفاصيله.

لم يتردد أحد بين النوم والانتظار، الكل ينتظر، لكن أحدًا لم يجرؤ على تلصص النظر من النافذة أو حتى هجر فراشه، فقط الكل يسمح بانسياب حلمه مع أحمره المتجدد فى الشرايين. والعقلاء فى شارعنا باتوا ليلتهم يخافون شيئًا لا يدركونه.

* * *

شارعنا ككل شوارع الدنيا الحزينة، اعتاد على الحزن حتى أنه لم يستطع أن يستوعب ملامح الفرحة، فاكتفى بعناق الأحلام.

* * *

الله أكبر... الله أكبر.... الصلاة خير من النوم.... لا إله إلا

الله

مع نهاية الأذان... "لم يخرج أحد".

انتهى الضجيج وساد الصمت... "لم يخرج أحد".

دقائق، توقف فيها الأسود عن البكاء، وتوقفت الحرب بين الألوان.

دقائق وسمع صوت يحلق فوق مئذنة الجامع

"حى على الخلاص"

"حى على الخلاص"

• شارعنا يعرف الصوت ويتذكر صاحبه، صاح الهمس فى الأعماق..."لقد عاد"

النداء يتكرر وتعلو حدته

"لم يخرج أحد"

الضجيج يعود من جديد، أصوات أحذية ثقيلة تغطى على صوت النداء حتى تلاشت موجاته وانتهت

"لم يخرج أحد"

اصطدمت أحلام الناس بواقع لا يعرفونه، "فنام الجميع".

* * *

شارعنا ككل شوارع الدنيا النائمة، يجد فى ساعات النوم حرية التعامل مع الكوابيس، فيهادنها حتى يقوى على التعايش مع واقعه.

* * *

استيقظ الصبح، ومعه كل نوافذنا، واصطدمت الأعين فى نظرتها للأنبوب، أبواب الشارع تزينها حواجز تغيرت ألوانها من الأحمر إلى الأسود، وضابط النقطة وجنوده يرتدون السواد.. يحرسون الحواجز وبنادقهم.

و كهل غطى الأبيض كل وجهه ورأسه يرتدى زِيًّا أحمرَ مشنوقٌ على باب الجامع.

قال الكبار: إنه كان يعيش فى أنبوب شارعنا منذ زمن ثم اختفى.

... لم يخرج أحد!!!

* * *

شارعنا ليس ككل شوارع الدنيا

* * *

قراقيش



أصرّ على أن يكتب ويكتب، كانت الكتابة له أكثر من حياة وقلمه منجمًا من ذهب يجعله أغنى كثيرًا من أىّ غنىّ؛ فهو لا ينضب، لا يخون ولا يغضب.

عارَضه كلٌ من حوله؛ فالكتابة فى جانبهم ليست إلاّ سفهًا وإضاعة للحظات الحياة الحلوة.

كتب وكتب...

كانت أمه تُعدُّ له طعامًا، وتحديدًا فولاً وطعمية، فكانت لا تجد أحقر من وريقات على مكتبه لكى تحفظ بها الطعام.

لكنه كتب وكتب...

صدر أول كتاب يحمل اسمه.

لم يكترث كثيرًا حينما وجد بائع الطعمية المواجه لمنزله يلفّ لزبائنه الطعام بصفحات كتابه، ربما أهدت أمه نسخًا من كتابه

للبائع.

لكنه كتب وكتب...

نشرت بعض الصحف مقالات له وبعض قصصه.

لم يُفَاجَأ حينما أكل يومًا قطعة طعمية ملفوفة بورقة من جريدة تحمل قصّة له.

شرد يومًا بذهنه حيث اللامعقول، تخيَّل أنه يحكم هذا الوطن.

جمع غفير من الكبار فى الدولة، قاعة فارهة تتّسع لآلاف، كاميرات، إذاعات وقنوات لا تُحصَى، عيون الشعب مسلّطة على عينيه، الكل ينتظر خطابه الأول، الكل ينتظر قراره الأول.

رجح الجميع أنه "إلغاء الدستور" ،...

يقف أمام الأمة:

"القرار الجمهورى رقم واحد، إلغاء....

صمت للحظات ثم استأنف:

"إلغاء الفول والطعمية".

ألوان ووجوه

ذهبت إلى المسجد كعادتى ظهيرة كل جمعة، وعلى الرغم من أننى لا أرى المسجد إلاّ مرةً كل أسبوع، فإننى أشعر بألفة لا أجدها فى بيتى أو عملى أو حتى على مقهى يلتهم نصف نهارى أو ثلث ليلى.

نفس الوجوه التى اعتدتها، تباينت ملامحها وخطوط العمر على قسماتها، لكننى رأيت منذ صغرى شيئًا جمع بين تجمُّعهم، بقعة داكنة تغطّى أعلى منتصف جباههم، كانت لهم شيئًا مألوفًا لكنها لم تكُن لى كذلك.

كنت أحاول منذ صباى أن أستدعيها لتنحفر على جبهتى، راسمة معنى ذا قيمة فى عيون نَاظِرِىَّ.

بذات النظرة الفاحصة فى جباه كل الحاضرين لمحت وجوهًا لا تحمل تلك البقعة المتوارَثة على جباه البسطاء، ربما استبدلوا

بما هذا السواد تحت العين يغطّى نصف الوجه.

تعجبت لاختلافهم أو تخلّفهم، لكن عزائى أنهم لا يناطحون أصابع يدى عددًا.

لم ألتفت كثيرًا إلى مسجّل كان بحوزة أحدهم، ولا بانشغال آخر بالتلصُّص على انفعالات الوجوه باعتياديّة شديدة. صعدت بنظرى درجات ذلك الدَّرَج المرهوب لأحده وقد اعتلى مجلسه فوق رؤوسنا وأسماعنا.

لم يعرف أحدنا يومًا من أين أتانا الشيخ محمد العباسى أو من أين أتى بعلمه، لكنه صار للناس أحبّ إليهم من أنفسهم وأبنائهم؛ فالشيخ يعرف كيف يثير الناس وكيف يَلين ويُلين معه انفعالاتهم. كان جريئًا إلى الحدّ الذى أشفق عليه الكثيرون من تبعات ما يقول، لكنه كان يقول كل ما يريدون سماعه ويخشون تفصيله بالكلمات، كل دعواته تنصهر وتمتزج فى بوتقة إيمانية جعلته الأكثر شهرة وجذبًا للناس لسماع خطبته.

الناس كما اعتادت تتجمّع بالمئات بعد الصلاة ليصافحوه ويسألوه ويتباركوا بمجالسته حتى الأذان التالى. فاجأهم وبصوت يختنق حزنًا أنها الخطبة الأخيرة معهم، فالوزارة قد نقلته إلى قرية نائية على أطراف العريش.

نظرات تبادلها الحاضرون دون كلمات، وباتفاق دون سابق

ترتيب على الرفض، صاحوا وبصوتٍ أبكى أعمدة المسجد الرخامية: "لأ يا شيخ مش حتمشى".

رفضوا مغادرة المسجد إلاّ بعد إلغاء القرار، ساعات قليلة وتوافد المسؤولون واحدًا تلو الآخر.

الجميع يهمس: "سكرتير المحافظ ومدير الأمن وصلوا".

"بس ولو، إحنا مش ماشيين إلاّ بعد ما يلغوا القرار".

الشيخ العباسى يهدّئ الناس فى ظاهر ما يقول، ويلهب رصيدًا من التمرّد زرعه عبر سنواتٍ فى أحلامهم.

كنت أجلس بين المعتصمين سعيدًا أريد أن أبتسم أو أهلّل؛ إننى أحبّ الشيخ معهم، أتحدّث كل خطبة على لسانه معهم، أريد الحقّ معهم.

أعلم أنهم كانوا لسنوات، بل عقود، أضعف من أن يجتمعوا على شيء. رأيتها خطوة نحو فك القيد.

كبّرت معهم منتشيًا بنصر ربما كان الأهمّ فى كل حياتنا حينما أعلن مدير الأوقاف الحاضر بالمسجد إلغاء القرار واستمرار الشيخ على منبره.

خرجت مع الناس نلتفّ فى دائرة حول الشيخ فى مشيتنا وكأننا أتقنّا دور الثُّوّار فأردنا حماية زعيمنا.

عدت إلى بيتى مختلفًا منتصرًا موقنًا أن الأمل قائم والناس تدرك أكثر مما تعلن.

بقيت أيامى التالية على فرحتى لا يقلقنى إلاّ احتمال راودنى أن يكون إلغاء القرار مجرَّد قرار لفضّ التجمع.

ذهبت إلى المسجد كعادتى كل يوم جمعة، لكنْ هذه المرّة التفتُّ أول ما التفتُّ إلى درجات الدَّرَج أصعد معها حيث أُسكِن عينى ما بين بقعة داكنة على جبهة الخطيب ولحيته... تراقصت دخائلى حينما وجدت الشيخ العباسى يجلس على منبره مسبحًا وداعيًا قبل البدء فى الخطبة.

انتقلت ببصرى حيث البقعة الداكنة تغطّى أعلى منتصف جباه وجوهٍ اعتدتها.

لم أجد البقعة على الجباه، لم أجد وجوهًا آلفها، وجدت المسجد ممتلئًا بوجوه تختلف، استُبْدِلَ بالبقعة سوادٌ تحت العين يغطّى نصف الوجه.

* * *

بورتريه الخلود

عرف الجميع منذ زمن أنه الأروع بين أبناء جيله، في الجامعة قالوا:

"يستطيع أن يرسم أعماقك بطريقة العرّافين".

فابتدع لغة جديدة حروفها من خطوط ودرجات ألوان، مستبدلاً بالودع فُرَشًا تتغير أحجامها بحجم الحالة الماثلة أمامه.

قالوا عنه:

"يرسم الحياة فيصنع من نورها وظلالها نتوءات تنفذ إلى سراديب التاريخ وأرشيف المستقبل".

همس بعضهم:

- إنه يسعى نحو الخلود.

مدرّسة اللغة الإنجليزية فى مرحلته الابتدائية طلبت منه ومن زملائه أن يحضروا إلى الفصل القادم ومعهم إجابة سؤال "ماذا تريد أن تكون فى المستقبل؟"، ولكن بالإنجليزية، كان ردّه عليها دون انتظار:

"I want to achieve the glory for myself".

فساد السكون بين زملاء لا يعرفون معنًى لِما قال، ومعلمة لا تدرى من أين تعلّم كلمة "مجد" بالعربية حتى يسعى أن يحقّقه بالإنجليزية!

أمُّه يئست من قبوله فكرة الزواج؛ فأشاعت بين بنات العائلة أن به مسًّا من الجنّ يعطّله عن الارتباط. فى اعتقادها أنها لا تكذب، فغير مرة تصرخ فى وجهه: "إنتا راكبك عفريت!".

لم يحبّ أحدًا فى أيامه قدر ما أحب أباه. فى شقّته الواسعة بالزمالك عاشا معًا بعد وفاة أمه، لا تفرّق بينهم سوى ساعات النوم.

الأب كل ليلة يخبره أنه يشعر أنها ليلته الأخيرة وأن المرض زحف ليستعمر فراشه بجوار جسده.

يجيبه أنه لا يجوز له أن يفارقه إلاّ بعد الانتهاء من فضّ رقعة الشّطْرنج.

سنوات مرّت، لم يعرف فى الدنيا إلاّ العبث بالفرشاة مبدعًا ملامح جديدة لوجه تتغيّر معالم تضاريسه كل ليلة بعوامل السرطان، واستكمال قدر من اللعبة.

يدرك أن الأب لا يتشبث بالحياة إلاّ لالتزامه بدور فيها، أراد أن يطيل اللعبة عقودًا طويلة.

رغم شجاعة الجنود واستبسالهم فى ساحة النزال فإن الحرب -كأىّ حرب- حتمًا تضع أوزارها يومًا.

حاشية الملك الأكبر ورفاقه يتخلّون عنه يومًا بعد يوم، فيقرر بعد الشهر الستّين أن لا مفرّ من الانسحاب خارج الرقعة، فيتقهقر خارج رقعة الحياة وكأنه قد اطمأن لتسليم إكليل النصر للملك الابن.

صوت الكارثة ينبعث من عربة الإسعاف توزّعه أنوار حمراء على سكان الحىّ، جثّة رجل مُسنّ ممدَّدة على السرير الوحيد بالشقّة مغطاة بملاءة ملوَّنة بمربعات سوداء تفصل بين أخرى بيضاء.

فُرَشٌ كثيرة مبعثرة هنا وهناك، لا يوجد أثاث، السرير يحتلّ منتصف الصالة، لوحات تبدو أنها لوجه صاحب الجسد الميت تصنع دائرة تلتفّ حول الجسد إلاّ من جزء فى محيطها، الفراغ بين طرفَى الدائرة يشكّل فوهة كالباب.

كل لوحة تعبّر عن مرحلة من مراحل المرض، وعند فحصها بترتيب رصها تجد مُبدِعها قد رسم الزمن وجسد الأيام بتلوين أثرها.

الفوّهة تواجه الجسد الميت فى داخلها، وبرواز خشبى كبير من خارجها يستوعب جسدًا يقف على الهواء...

منقوش أسفل الإطار:

"أكتفى بهذا القدر".

* * *

خانة رفض



لا أحب أن ألتقى بالحياة قبل الثامنة، ليس عُزوفًا عنها، لكنّى لا أكون سعيدًا لمجرَّد التفكير فى أن أحدهم ما زال فى راحة منها بينما أعانيها.

أرتدى أول ما يصادفنى، أحاول أن أتعمّد غياب التناسق فى مظهرى، فلن أتوجَّه إلى مكتبى، سأحاول أن أتسول شخصيّة رجل متحضِّر.

أتعمَّد -كما قرّرتُ منذ شهور- ألاَّ أعبأ بلافتات تبعثرت بعشوائية لتجبر العيون على أن تصطدم بها... حتى ولو خصّنى بعضُها.

أقف أمام مدرستى القديمة. ما زالت جدرانها عتيقة، ربما ازداد عمرها عقودًا، لكنها ما زالت تحتضن نسمات براءة الجنّة فى غرف الحضانات.

رائحة لا أتذكّرها إلاّ عندما ألثم شعيرات صغيرتى، بينما

هى فى إجازة من عالَمنا.

العمّ إسماعيل الفرّاش ما زال يجلس على مقعده المتهالك، اكتسى رأسه ببياض الوهن، وانتحرت الابتسامة، ودُفنت فى غير وجهه.

لم تعثر عيونى على ذلك القفص الخشبى الذى كان يعانقه دائمًا بسيقان قدميه يملؤه بسندوتشات الجبنة والمربّى ليصنع من شرائها رخصة لكل ما تحرّمه حكمة الأساتذة.

الهروب، إدخال الكرة، الكاسيت، السجائر، وأشياء يتبادلها الأولاد والبنات.

رغم كل شيء كنا نحبه، وكان يتصنع حبَّنا.

ابنه كان بيننا تلميذًا، والوحيد الذى لم ينَل يومًا شرف الاستفادة من رُخَصِ أبيه.

تعجبت لوجود العم إسماعيل فى يوم كهذا؛ عساكر الشرطة تقف على أبواب المدرسة تحرسها، أو هكذا يبدو. كم أكره هذا الزّى الأسود! كما أن الصغار لن يأتوا هذا النهار.

صافحته؛ فبادلنى التحية بشكل أكّد لى أنه لا يعرفنى، تذكّرت أنى قابلت ابنه عماد منذ عامين فى قصر العينى الجديد، يعمل طبيبًا، سألته عن العمّ إسماعيل فتجهَّم وجهه، أدركت أنه

ما زال فى حُمقه القديم يستاء من عمل أبيه أو الحديث عنه، وفطنت أيضًا إلَى أن العم إسماعيل ما زال حيًّا؛ فلو أنه فارق الحياة لَمَا تجهَّم وجه الابن، فنحن لا نفخر ببساطة آبائنا إلاّ بعد رحيلهم، لا إطراءً فيهم بقدر ما يكون إيحاءً لِمَن حولنا بعصاميّتنا وأنّا صنعنا أسماءنا من لا شيء.

* * *

بحثت عن اسمى، وجدته فى فصل ١/٥، ولأول مرة أدلف إلى الفصل غير مهموم. بعثت بتحيّة للحضور فلم يُجبْنى أحدهم، فتمنيت لو لم أحضر. زجّت سيدة تجلس فى صدر الفصل بورقة فى يدى، وبصوت لا يحمل أية تاءات مربوطة بادرتنى:

"بسرعه خلص يا أستاذ".

فحافظت على تأدُّبى مجيبًا:

"هوه مفيش ستاره هنا؟".

لم تُجبْنى السيدة كما لم يُجبْنى أحدهم، ولكنى تنبّهت أنها تردّ بالنظرات، ونظرتها تصرخ فى وجهى تتّهمنى أنى ساذج أو عبيط، وربما حملت بين طيّاتها لونًا من ألوان السبّ غير العلنى.

تقبلتُ الإهانة متماديًا فى انتحال شخصية رجل متحضّر.

لم أجد فى الورقة أسماء، فوجئت أنى مدفوع لأن أفاضل بين رموز... مجرَّد رموز.

ارتدّ شعاع من عينَى عن صُوَرٍ حسبتُها فى بادئ الأمر دعاية للعب الأطفال: مربَّعات رُسم بداخلها فيل وسُلَّم، عجلة وكرسى، جمل وتليفُون. حتى الشىء الذى أعرفه منذ أن عشقت السماء لم أجده متقَنًا، هلال لوّنوه باللون الأخضر! فى بلدنا أحببته مضيئًا ببياض الثلج.

قد أتعاطف مع الفيل، لكنى لا أستطيع تجاهُل صاحبه الأشرم، الناقة لا أمتطيها ولا آكل لحمها، لكنى أقدّرها، طبيبى أخبرنى أن صعود السلالم يرهق قلبى فخاصمته. لم أستطع أن أمنعنى عن الضحك عندما أبصرت مسدسًا على الورقة مصوَّبًا نحو اللا شىء، وربما نحوى...

"خلص يا أستاذ، هوه احنا ماوراناش غيرك؟".

هربت الضحكة من فمى رافضة أن تَحْيَا فى حضرة الشرّ، فالتقطت القلم وسطرت مربعًا جديدًا راسمًا رمزًا من رموز الرفض، ولأول مرة أغادر فصل الدراسة مهمومًا. فكرت أن أذهب إلى مكتبى أو أسير فى الشوارع أطلب من كل الناس أن يتعلموا كيف يرسمون هذا الشعار الذى أبجته.

مع بداية النهار التالى كنت لا أزال حائرًا أتحدّث إلى الطرقات.

تلقّيت مكالمة على هاتفى من مجهول:

"معلش يا بيه، تعوّضها الدورة الجايّة، إنت سقطت".

عدت إلى بيتى لأنام، إحساس جميل أن تفارقها وغيرك يعانيها.



ملوك



كان يفخر دائمًا بأنه أقدم سُكّان الحى، بل وأكبرهم سنًّا. كان ينظر إليه الجميع على أنه الأهمّ رغمًا عن هرَمِه وَوَهَنِه. بعضُهم أكّد أن اللوحة المعلّقة على باب الحارة تحمل اسمه، والبعض تَحَمَّس لفكرة مفادها أن الاسم لأحد باشاوات العصر البائد، فكان يضحك ساخرًا، ويهتف فيهم وسط الحارة قائلاً:

"يا عالَم يا هُبْل، هوّ فيه باشا اسمه مليم؟!".

حارة ملّيم لم تكُن فقط الكبرى بين حارات الحى، ولكنها اكتسبت أهميتها من موقعها المؤدّى إلى السوق الكبيرة من جهة، وموقف الأتوبيسات من الجانب الآخر، إضافةً إلى تكدُّسها بالسكّان، الأمر الذى دفع الحاجّ عبد الدايم النائب بمجلس الشعب إلى أن يفتح شقّة فى الحارة بعنوان "المقر الانتخابى"، واقترن الافتتاح بقرار من رئيس الحى بتغيير اسم الحارة من حارة "مليم" إلى حارة "عبد الدايم"...

لم يترعج الناس كثيرًا، فالأمر ليس فى حيّز اهتمامهم، لكنه كان كارثيًا على "مليم أفندى"، هكذا كان يناديه أهل الحارة. كان على يقين من أن اعتراضه لن يُجدى وعلوّ صوته لن يصل إلى أحد، ولكنه ظلّ هادئًا مكتسبًا ثقة المنتصر عندما وجد الناس يتجاهلون الاسم الجديد للحارة ويتمسكون بـــ"ملّيمهم الكبير" فى تعاملاتهم أو حتى مكاتباتهم البريدية، ربما ليس لاعتزازهم بقيمة الرجل بقدر الاعتيادية، "واهو اللى تحفظه أحسن من اللى متعرفوش".

انتبه الحاج عبد الدايم إلى أنه لم يحقّق بغيته، استشاط غضبًا، بل شعر بالإهانة، فقرّر أن يزيح العائق...

استيقظ ملّيم أفندى على صوت نقر كثيف على باب شقّته، الشرطة ومهندس الحى أخبروه، بل أمروه، بمغادرة العقار لأنه آيل للسقوط!

عبثًا حاول منعهم من تشريده، فى النهاية لملم بعضًا من كتبه القديمة وقليلاً من ملابسه، وترك الحارة لا يعرف لنفسه وجهة، ولكنه قرّر ترك العاصمة، قد يذهب إلى بلدته فى الصعيد، أو حتى يبحث عن قبر له فى الصحراء... طلب من بائع التذاكر بالمترو ورقة صفراء تتيح له العبور إلى حيث يذهب كل الناس

قائلاً:

"رمسيس لو سمحت يا ابنى".

ضحك الموظف متحسّرًا ثم أجاب:

"يا حاجّ خلاص، رمسيس مشى... قصدى طردوه".

* * *



الجسر



فى بلدنا كتب التاريخ تُطبع فى المطابع الأميرية

"استنتجت حتمية الانهيار"

أراه يمسك بمكنسة تأخذ من جمال الجسر أكثر مما تمنح. خطوط التجاعيد على وجهه تحمل تضاريس رأيتها من قبل على خارطة الوطن، تحديدًا فى جانبه الشرقى. الفارق أن المساحات الصفراء على وجهه أكثر اتساعًا، لون ملابسه يُبَرِّرُ كونَهُ يحمل مكنسة فى يده، أَتَفَهَّمُ كونها غير نظيفة.

ألمح أن لا شىء على سطح الجسر يستدعى وجوده، وأستنتج أن مكنسته تصطفّ معه فى طابور العاطلين تبحث عن عمل يناسبها.

طلبت من سيارتى "سوكا" أن نقف بمحاذاته...

* * *

"حاربت مع اللى حاربوا، وهربت مع اللى هربوا"...

قالها متأبطا مكنسته بانفعال وكأنه يتأهب لقتال، وبنبرة اختلفت حدّتها استأنف:

"بس السادات لبّسهم طُرَح، عمل فى كل بيت من بيوتهم ميتم. الله يرحمه".

يلحظ اهتمامى وحالة اللا إدراك فيستطرد:

"أنا سلّمت عليه بعد النصر، والله سلّمت عليه، مش مصدق؟! طب ورحمة الشهيد صادق سلّم عليّا فى عيد النصر، صادق ده كان أخويا وحبيى، واتجوزت أخته بعد ما استشهد، كان زى اخويا والله، بس هوه كان متعلم".

مرة أخرى يكرر:

"إنت مش مصدق إنى سلمت على السادات؟ طب بُصّ..".

وجدته يُخرِج من جيب سترته قطعة من قماش ناعم تشبه تلك التى أستخدمها فى حرمان نظّارتى من غبارها، ويُخرِج منها بحرص وإتقان ميدالية مكتوبٌ عليها "جرحى الحرب".

فابتسمت له وأومأت برأسى مصدّقًا ومصطنعًا خليطًا من الاحترام والانبهار.

أيقنت أن الرجل ما عاد يمتلك كل عقله، السيارات من خلفى تسبُّنى بأبواقها، فقد منحت الحرية لِمَن أمامى وقيّدت كل من كان خلفى.

عرضت عليه اصطحابه حيث يشاء، وقد أجد له عملاً.

فتخلّى الرجل عن مكنسته وتركها تغازل سطح الجسر وقال وكأنه اكتشف بلاهتى:

"روح يا ابنى، إنت مش فاهم، الكوبرى ده بتاعى. طب عارف؟ أنا اللّى سَمّيته، آه والله، طبعًا مش مصدّق، طب وحياة صادق ابنى، على فكرة، صادق ابنى ظابط فى الجيش، قبلوه عشان خاطرى، ما هو أنا مكنتش ضامن، ما يمكن يرجعوا تانى ولاد القرود، على فكرة، كان بيزورنى لحدّ وقت قريب".

مئات الأبواق تلعننى فى كل ثانية مئات المرات، أهمّ باعتلاء عرش "سوكا" فيمسك بيدى ويضمّنى نحوه بقوة قائلا:

"أنا قلت للسادات وانا باسلّم عليه: "سَمّى القاهرة أو إسكندريه ٦ أكتوبر، فضحك".

تجذبنى "سوكا" نحو داخلها كى أهرب بها من بطش المقيَّدين

خلفى. أجتاز الجسر الطويل مبصرًا المقيَّدين خلفى، من خلف مرآة تقبع أمام عينَى، يغازل سطح الجسر بمكنسته من جديد، يحرّك ساقًا من لحم البشر وعظمهم وأخرى من خشب.

تتوقف السيارات أمامه لتبرز من نوافذها أيادٍ تغازل يديه بشيء من المال، فيقبلها بعد أن يقصّ على مالك اليد حكاية.

* * *

بعد فراغى من سماع النبأ هُرعت إلى حيث الأنقاض، ركام الجسر يرسم خطًّا من دموع يابسة يخترق وجه الوطن، أحاول الاقتراب، يمنعني جنود لا يعرفون سببًا لمنعى، توجهت إلى حيث ضابطهم، أخبرته أن لى صديقًا كان على سطح الجسر حين انهار، فنظر إلىّ نظرة تشبه تلك التى نظرتها إلى أبو صادق من قبل، يئست من الاقتراب، ففاجأنى عقلى بأنه من العسير تحديد النقطة التى وصلها الرجل فى رحلة عبوره للجسر، كما أنى لم أصادف أى صادق يحاول العثور على جسد أبيه.

ربما لا يعلم أن الجسر مِلْكٌ له من بعده.

صبيحة اليوم السادس للسقوط أفرجت الحكومة عن أسماء من ماتوا تحت حطام الجسر، كان من بينهم عشرون رجلاً

وامرأتان لم يُستدلّ على هُوِيَّاتهم.

ذهبت أسأل عن جثّة لا تملك إلاّ قدمًا واحدة فلم أعثر عليها، لكني لمحت ميدالية منقوش عليها "جرحى الحرب" تقود مفاتيح الضابط.

حزنت، لكني أدركت ساعتها أنه:

"إذا فقأت عين الوطن فستترف ألف ألف من رجل الجسر".

* * *

أبواب



اعتادت التمرّد، أمّها اعتادت على ردعها، أحيانًا تشعر أنها تكرهها مخالفةً لكل الثوابت، وأحيانًا تحبها أكثر كثيرًا من حبها لدمية تقاسمها فراشها منذ سنوات، حتى بعد أن نضجت وكبر معها حلم الحب والحرية وإثبات الذات، لم تتوازَ نظرة أمها مع ارتقاء مشاعرها ونظرتها إلى الأيام.

كانت إحداهما تتقدم والأخرى تصمِّم على أن تعود.

أحيانًا كانت تعود إلى غرفتها فتجد اختفاء أوراقها، أدوات زينتها، أو حتى بعض الكتب فى نطاق اهتماماتها، حتى اختفت يومًا دميتها فباتت لا تحب أمها أكثر من شىء. كانت قمّة الخلاف بينهما تتعملق عندما تغلق الأم باب الشقّة بالمفتاح وتمنعها من الخروج، معلّلةً ذلك بأن الحرية امتياز لا تستحقّه...

تثور ثائرها، تستشيط غضبًا، هرول بين الحجرات بلا هدف، هدّد بالقفز من النافذة، ثم تستكين، وتستكين، حتى تنام...

عادت يومًا من الجامعة فلم تجد بابًا كان يحرس غرفتها منذ وعَت الأشياء. صُدمت، انهارت، اتجهت إلى أمها تسألها عن أى شيء، أجابتها: "الخصوصية امتياز لا تستحقّينه"!

إنها ما زالت تحب أمها، لكنها تبحث عن بيت يعى ماذا تعنى كلمة باب.

سوکا

تعجبت قليلاً حينما وجدته يقبض روح محرّك سيارته بلا تردُّد، وفعل الآخرون نفس الشيء تباعًا. كنت أعتلى عرش السيارة المواجهه لسيارته، لكنى لم أوافقهم، فلسيارتى شأن عندى قد يختلف عن مثيله لدى الآخرين، فصوتها يحدّثنى، وأحيانًا يعاتبنى ويتشاجر معى.

لا أنسى حين سببتها ذات مرّة حتى تسرع بى؛ فَأَضْرَبَتْ عن عملها فى لحظتها، ووقفتُ أمامها حائرًا، ووجدتنى أعتذر لها بصوت لم يسمعه سوانا، وربتُّ على عظامها فتصالَحَتْ وأسرَعَتْ فى سيرها...

من يومها صرنا أكثر من صديقين، فأغنّى لها بطريقتى، ولى منها نفس الشيء بطريقتها. لا أحتمل أن يتّسخ مظهرها أو أن أبطئ عليها بغذائها.

الرجل بدا لى وقورًا فى هيئته، لكنى تعجبت أكثر حين وجدته يستمع لمذياع سيارته مشعلاً سيجارًا فاخرًا ويرخى ظهره على الكرسى وكأنه يستعدّ لنوم عميق. كثيرون فعلوا مثله، وبقيت أستمع لغناء يصدر من أحشاء رفيقى.

رطوبة الجو وحرُّه جعلانى أشعر باختناق؛ فغادرتها مجبَرًا ألتمس خطًّا من رسائل النسيم، فوجئت أن لا مكان فى الطريق لقدم، فالسيّارات بما حوت قد احتلّت كل شبر فيه.

وجدتنى وصديقى نقف فى أكبر طابور لعرض السيارات شاهدته فى حياتى! المشهد واحد لا يتغير حتى خطّ عناق السماء للأرض، والمعرض كبير، ولا أحد ينتظر مشتريًا. ساورنى شك مخيف أن سياراتنا ليست للبيع، بل هى رهن الاعتقال!

حرارة الجوّ ورطوبته تزداد، مناديلى الورقية تكاد تنفَد، لا أستطيع أن أجالس صديقى، فحرارتها أعلى كثيرًا. لم أحسد أحدًا من أصحاب السيارات الجديدة الذين يختبئون فى جوّ تكيَّفَتْ حرارتُهُ ،بل شعرت بالشفقة عليهم، فسيّاراتهم غريبة على ديارنا، جاءت لا تمتلك ما يكفى من عاطفة لتتهيّأ لصداقة أصحابها.

صحيح أن سيّارتى أيضًا لم تُولَد بيننا، ولكنها عاشت هنا كل طفولتها وشبابها، أكثر من ثلاثين عامًا، كانت كافية لتخلق

بداخلها عاطفة الشرق وحميميته.

الرجل الوقور ما زال يستمع للمذياع فى استرخاء.

آه ليس لدىَّ مذياع فى سيّارتى، فصوتها عندى أفضل. لم أسأل أحدًا عن سبب هجر الحياة للطريق. كان جليًّا أن لا أحد يشاركنى التساؤل أو لا أحد يريد أن يعرف.

قرّرت أن أنظر فى وجوه الناس، أتلصّص على انفعالات وجوههم، أصطنع من أىٍّ منها بداية حكاية أسرِّع بها عقارب ساعتى دون أن أشعر.

لم أخلص إلى شىء ذى قيمة. وجدتنى أنظر إلى متحف كل مفرداته من شمع يتصنع التماسُك تحت وطأة الحرِّ، فتنبّهت إلى سياراتهم. ربما كان الأجدر بى أن أنظر منذ البداية نحوها. وجدت سيّارة تدخّن بشراهة وصاحبها يتحسّس أمعاءها المحمومة فى حذر، وأخرى تكاد تحتكُّ بالّتى أمامها وكأنها تغازلها فى عذوبة، وسيّارة حديثة الميلاد تقف عن عمد بعيدة عن صديقتى فى تعجرُف وتعالٍ...

كدت أغزل ثوب قصّة تكون صديقتى بطلة لها، لكنه فاجأنى بقماشة صفراء يحكّ بها عيون البطلة فشكرتُه بتهذُّب مصطنَع راسمًا طيف ابتسامة على شفتَىَّ مطالبًا إياه بالتوقُّف، فهى ليست بحاجة إليه، لكنه لم يلتفت لِما أقول وكأنه وفوطته الصفراء

ضريبة يجب أن أقبل بسداد أجرها، فأعدمت الابتسامة الزائفة ونهرته بصوت ينبئ عن استعدادى لخوض معركة معه.

أشاح لى بكلتا يديه وترك سيّارتى متمتمًا بكلمات لم أميّزها، ولو أنى كنت على يقين من أنه يسبّنى أو يسبّها. كان من الطبيعى أن أتشاجر معه، لكنى قرّرت أنه فى كل الأحوال لن يخسر قدر خسارتى، فتجاهلته ونسيت حياكة حكايتى.

طال الانتظار وبدأت أرى فى عيون جيرانى دهشة لإبقائى صديقتى على قيد الحياة. إنهم لا يدركون حجم صداقتنا ولا قوّتها، لن يتخيلوا أنى فككت عنها قيد العبودية بمجرّد امتلاكها فصارت حُرّة فى عالمى.

تذكرت حينما لملمت كل ما ادّخرت لشرائها زاهدًا فى فكرة الزواج، يومها قال لى صديقى ساخرًا:

"أقرع ونُزَهى".

فابتسمت ساخرًا، كنت أعلم أنه يريد تزويجى بشقيقته، نسيت القيظ المنهك ودلفت أحتضن طوقها بكلتا يدَىَّ. ليلة ابتعتها قررت أن أسمّيها، وجدت لسانى يخاطبها دون تفكير، وحتى اليوم لست أدرى معنى للاسم الذى أطلقته عليها، ولا لماذا جال بخاطرى، لكنه انتشر بين أصحابى عن غير عمد، ربما لأنهم لم يفهموا له معنى، وعلى الرغم من أنهم كانوا لا يملُّون

التندُّر عليها فإننى كنت حائط صدٍّ لم يتهاون يومًا فى الدفاع عنها. أردّد دائمًا:

"عجيب أن تسقط فى حب معشوقة من حديد، والأعجب أن يبادلك الحديد..".

انتزعنى صراخ قادم من جارى الوقور، وجدته أغلق مذياع سيّارته وتخلّى عن وقار السيجار مغادرًا سيّارته هاتفًا:

"الريس خلّص الخطاب، الريس خلّص".

وبدأت الحياة تعود للطريق شيئًا فشيئًا، السيارات بدأت تتحرك فى بطء أسعد كلّ مَن حولى وكأنهم يُساقون إلى باب المعتقَل فى اتجاه الحرّية...

انتبهت لسيارتى وكنت محدِّثًا نفسى لا محدِّثها حينما هممت قائلاً:

"أنا لازم أركّب راديو".

فماتت صديقتى لفورها.

الجيران يتحددون من حولى وأنا أتودّد إليها متوسلاً أن تعدل عن قرارها بالانتحار.

* * *



حدود

يقف الجميع إجلالاً للرهبة، قضبان القفص الذى يحتويه لم تستطِع يومًا أن تلتقى، أحسبها أرادت أن تؤمّن مساحات للأمل، تعلّقَت يداه بآحاد القضبان السوداء فمنحت للعيدان إمكانية الحوار عبر قوس وسيط.

تعبث أصابعه بما وراء القيود، تنقّب عن أحشاء العدل ببطن القاعة.

قال له أبوه قبل الجلسة:

"إياك أن تبكى، فالكل سواك مدان".

"الموت وحيدًا فى ظلمة قاع الجبّ أهون بكثير من إدراك البعد الآخر للعدل".

* * *

ممثّل النيابة يختتم ادّعاءه مخاطبًا الأوشحة الخضراء المائلة، مشيرًا بإصبعه القزمة إلى القفص صائحًا:

"إنه لم يقدِّرْ هيبة الدولة و لم يحترم قانون العسكر المقدَّس".

* * *

لم تصل أصابعه الّتى تعدّت حدّ الحدّ بقليل إلى شىء تبحث عنه عبر نظرات اليأس، فاكتفت بعناق الصدأ البارد.

أمُّه تجلس وسط الجمع الحاضر غير راغبة فى النظر إلى خشبة المسرح.

المشهد المعروض مكتوب بمفردات لا تفهمها لكنها تعرف جيدًا أن كل حرف فيه يضيف نهرًا إلى دموعها، فتحوّلت بعينيها وكلها إلى عيون وليدها، فوجدت ما تبحث عنه، عيونه المسلطة على كل وجهها... تقول له ويقول لها:

- أستحلفكِ بالله، لا تبكى.

* حذّرتُكَ.

- هناك، عندما يسقط من بينهم شهيد يلتفّ رفاقه حول أمّه، يقيّدون أحزانها حتى تقف على قبره، يقولون لها: "زغردى، فى الغد سنكون محلّه، لا نريد لأمهاتنا البكاء... زغردى".

أن تخاطب الآخر بالنظرات فهذا مبلغ من صفاء القلب ونقائه، ولكن فى مشهد كهذا تحتاج إلى لسان أكثر تمرُّسًا على الهروب والكذب.

* * *

الدفاع يقف حائلاً أمام تدفُّق الطيف الناطق. يتثاءب بعبارات توقظ الشعور بالنعاس، هو الآخر يرتدى زِىَّ العسكر. يوجِّه إلى مَنْ وراءَ القفص أسئلةً قد تدينه، لكنها حتمًا تقوده إلى الحدّ الذى لا يُشنق عنده.

* * *

نجوم على أكتاف من تزين صدورهم رايات بلون الخير والدم، تلمع فى شاشة عينيه الحبلى بالندى، تتلفّح بشعار منقوش على أرض الكتف:

"إنا نحكم بالعدل الذى يقينا".

يستمر فى أسر دموعه خلف آحاد قضبان من وراء آحاد قضبان...

مرة أخرى يطلق طيفه الناطق إلى حيث عيون صغيرة... يجلس على قدم أمه ناظرًا إلى عين أبيه الآسرة المأسورة...

- "هناك، الصغار لا يبكون، يفرحون حين يطلقون عليهم

رصاصات مطّاطية، يجمعونها، يقشّرونها، يصنعون من كرات الحديد داخلها وقودًا لنبالهم، إنهم هناك لا يكون".

فيتوقف بكاء الصغير

أحدهم يدقّ:

"الحكم قبل.... أعني بعد المداولة".

...... محكمه.

يطلقها الحاجبُ الدامع العينين بلا دموع، ويقف الجميع إجلالاً للحرية.

هذا المشهد هو ما ارتسم أمام عيني وأنا أقرأ هذا الخبر الصغير في الجريدة الكبيرة:

الحكم بحبس أمين شرطة ستة أشهر لرفضه حراسة السفارة الإسرائيلية

الأم تقترب من القفص، تمحو كل آثار دموعها، تحتضن عيدانه بإحدى يديها، وترفع الأخرى فوق فمها و...

تزغرد.

نهاية



سقطتُ، كانت الأرض مبتلة، موحلة بلا سواد، شعرت بكائنات مصبوغة بالبياض يتعمدون توزيع الطين اللا أسود على كل جسدى...

أحدهم يدقّ على طبلة أذنى معلنًا فى الأسواق أن "يا رأسه، يا قلبه، يا عينيه ولسانه، يا كله...".

يوم القيامة قد قرب...

قرّروا أن يصوّروا تاريخى على طريقة الفيديو كليب! صرخت فيهم بكل ما تبقّى لى من صمت، أطلب أن لا ينبشوا قبورًا حاولت طيلة ما مضى أن أخفى أو أنسى ما فيها.

لغتى ما عادت تصل إليهم أو تتواصل مع مألوفهم، باتوا لا يفهمون سوى لغة واحدة، رسموا حروفها من بين خطوط خضراء غارقة فى العتمة ترفض أن تثبت على هيئة. تحتضن بين صعودها وهبوطها كل ما قرّرت عيناى اختزانه من صور.

أحدهم يقول فى بؤس: "اقتربت الساعة".

تزداد أطرافى تجمُّدًا، تغالى الخطوط فى مساحات الهروب، تنسحب أحلام الذكريات، يتضاءل أصحاب البياض المصطنَع إلى أقزام.

أتذكّر الصلاة، فاتنى الكثير منذ أن سقطت، أشعر أنى ما عدت أقود جسدى. لن أقوى على أدائها، لكنى ما زلت أذكر أنى لا بد أن أنطق بالشهادتين.

لست أدرى إن كنت فى الحياة ما زلت، أم فارقتها، لكنى على يقين أنه ما زال هناك ما أتشبث بالبقاء من أجله، متسلحًا بتلك النبضات الواهنة التى تعمدَتِ التحرُّش بصدرى حتى النهاية.

أبصر بعينين مغلقتين وميضًا ليس من نور الدنيا تتخلّله بقع داكنة تتسارع ثم تتثاءب ثم تتلاشى ثم تُولَد لتتسارع...

المشهد يبدو رهيبًا مألوفًا فى الوقت ذاته.

لا يعنينى فراق الحياة بقدر الخوف من مجهول، لا أقوى على تنبُّؤ صدماته.

فى أقلّ من دقيقة فكرت فى كل حياتى المعروضة على الشاشة السوداء. كلها مزيج من فوقيّات وتحتيّات لم تستقِم

يوما، كورال غير بشرىٌّ يتداخل مع دقّ طبول، يهمس فى غموض:

"الجاثية"

التزال يشتدّ بين عقلى ولسانى كى أنطق بالشهادتين.

سأقول إنى أحببت كل شىء...

"أحببت الدنيا لأنك خالقها، وأبى وأمى لأنك جعلتهما سببًا فى أنى دنيوىٌّ...".

الأصوات تفرغ من دقّ الطبول ثم لا تلبث أن تتوغل حتى حلقى:

"الساعة".

سأقول لربى:

"إنى أحببت دينى لأنه علّمنى كيف أجدك، والوطن لأنه لا يجد من يحبه...".

صوت الكورال يصارع رتابة الهدوء:

"الساعة".

تنبهت أنى لم أُنه بدايةَ آخر قصّة شرعت فى كتابتها.

سوف أستحى أن أسأل ربى إن كان فى الجنّة قلم رصاص

وورق أبيض.

صوت الكورال بحدّة أكثر:

"الجاثية".

الوميض اللا لون له يتحول إلى خطوط برق لا مستقيمة، والبقع الداكنة إلى أصوات رعدية تخرس كل أصوات العصافير التى تلتحف أوراق سنين العمر...

"القارعة".

تنهار الجبال الخضراء على الشاشة لتمنح مساحات أوسع للسواد، فتقترب من الاستقامة...

"الآزفة".

سوف أعترف أنى لم أحبّ الدنيا كلها، كرهت منها ثلاثةً: القلم الجافّ وإسرائيكا، وكل امرأة لم تحبنى.

لم أنسَ بعدُ أنى لا بد أن أنطق بالشهادتين. صوت أنثوىٌّ يهمس فى أذنِ ذَكَرِيْهِ" أن الولادة متعسّرة"

حان دورى:

"أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمَّدًا رسول الله".

كل الأصوات تتّحد فى خفوقها:

"اللقاء".

آلات الطبع تمخضت عن ورقة طويلة بطول المسافة ما بين الصرخة والشهادة، منقوش عليها خطٌّ استقام تمامًا بعد طول انحراف، تصطفّ بمحاذاته تفاصيل القصّة الأخيرة، تلك التى لم أسمِّها...

سمّاها كبير الأقزام...

"رسم قلب".

* * *

الفهرس